نبعة الشعر

بقلم الاستاذ السباعي السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم

ليس للشعر باعتباره تلك المعاني المؤثرة التي تتصل بالشعور وتعبر عن خلجات النفوس، وتنساق لهدى الغرائز والميول أولية تعرف؛ فانه بهذا المعنى يكاد يكون مخلوقاً مع الانسان منذ هبط إلى هذا الوجود، مجموعة غرائز نظرية يخضع لها في كل أعماله خضوعاً لا يحد منه عقل، ولا يقف في سبيله فكر، لأن العقل والتفكير لم يوجدا إلا بعد حقب طال أمدها، اكتسب الانسان خلالها من التجارب ما أوجد له عقلا بجوار الغريزة، فصارت إرادته مرتكزة عليه بعد أن كانت مسخرة دون تفكير للغرائز الحافزة والميول الدافعة، ولكن ليس مما يسيغه عقل ولا تسمح به سنة أن تكون تلك المعاني قد ظهرت أول ما ظهرت فيما نسميه الآن شعراً بالمعنى الاصطلاحي، أي في قوالب محدودة من الأوزان والقوافي، فان هذه القوالب في كل اللغات أثر من آثار حضارتها؛ والحضارة لا يمكن أن تكون إلا بعد قرون طويلة تقطعها اللغة منذ نشأتها إلى حيث تظهر بها أمثال هذه الآثار.

فالمعاني الشعرية التي وجدت حيث وجدت مطلقة الأسلوب من كل قيد، وأخذت أساليبها في التدرج إلى أن بلغت الغاية التي ترى من قيود، ثم جهلت هذه الخطوات الأولى كما جهلت سائر أوائل الأشياء، على أن العقل يكاد يجزم في لغتنا العربية أن أول خطوة خطاها شعرها في أساليبه كانت ممثلة في الأسجاع، وبعدها كان تساوي الفواصل بها، ثم خضوع هذا التساوي شيئاً فشيئاً لأقيسة التفاعيل، وبذلك تحقق الوزن في البيت الواحد مع اتحاد الحرف الأخير في الشطرين كما نراه في منظومات العلوم والفنون وهذا أهون أنواع الشعر؛ وتلا هذه الحالة التقييد بحرف القافية في الأعجاز مع التحلل منه في الصدور، وفي خلال ذلك وعلى توالي القرون تنوعت الأوزان وطالت القوافي، وبلغ الاقتدار على التقيد مداه حتى وصل إلى الأراجيز، وهي أصعب أنواع الشعر، فصار لا بد للشعر العربي في معناه من التأثير المعتمد على الشعور، وفي لفظه من التقيد بالوزن والقافية بحيث إذا خلا من هذين معاً أو من أحدهما سمي نثراً خسب، وسمي نثراً شعرياً، وسمي نظاماً لا شعراً. فالشعر على إطلاقه هو ما عينا من الكلام ذي التأثير الشعوري الجاري في حدود الوزن والقافية، وعلى هذا القصد ذكرنا ما ذكرنا في مقال سابق(١): أن النثر أسبق منه إلى الوجود.

(١) راجع الجزء الحادي عشر من السنة الاولى لمجلة « المعرفة »

ولما كان المعنى الشعري فطرياً تهدي إليه الطبيعة البشرية، ولا بد للإنسان منه في التسري عن نفسه وقت الشدة، والتسلي به حين الوحدة، ظهر الشعر على ألسنة الأمم جميعاً ولم تختص به أمة دون أخرى، ولكنها لم تك فيه سواء، فكانت أكثرهن فيه قولا أصلحها له بيئة وأدقها له لغة، ومن ثم كانت العرب في جاهليتها من أقدر الشعوب عليه إن لم تكن أقدرها جميعاً، فقد قاله بنوها رجالا ونساء، شبانا وشيباً، سادة وسواداً، ولم يعدم أقلهم فيه شأناً الأبيات يقدمها في حاجته أو يعبر بها عن معنى في نفسه وإن لم يك من الملقبين بالشعراء، مسوقاً إلى ذلك بطبيعة العيش البدوي التي تهدي إلى الشعر وتدعو إلى الغناء به : فمن حياة بسيطة ساذجة لا شيء فيها يطغى على الفطرة أو يعبث بالوجدان، بل كل ما فيها ينميها و يزيد في قوتها سماء صافية الرقعة متألقة الكواكب، وأرض منبسطة الأديم لامعة الرمال متجلية للمقيم فيها بكل ما عليها من حيوان ونبات إلى رحلة طويلة دائمة لا يفارق العربي فيها راحلته فلا يزال يسوقها وهي تقطع المفاوز والقفار بتلك الحركة المرقصة كأرجوحة الطفل لا تكاد اليد تهزها حتى ينطلق اللسان فيغنيها، وكذلك العربي لم يتمالك لسانه أن انطلق لراحلته فلم يزل يحدوها بألحان الشعر ويرفع من ورائها عقيرته بأهازيجه، ولقد قالوا: إن أول ما نشأ من الأوزان الرجز، وما الرجز إلا قياس رسمه في مخيلة العرب سير الإبل في الصحراء، ففاض الشعر على ألسنتهم أول ما فاض بألفاظ هي وتفاعيل الرجز في الوقع سواء.

تهيأت للعرب إذن دواعي الشعر بما تهيأ لهم من سلامة فطرة وملاءمة بيئة، ثم كشف عيشهم ما اكتنفه من ضنك ومشقة، وكدر وعزلة، ففزعوا إليه يتخذونه لدى الشدائد عوناً، وفي الوحدة أنيساً، حتى صار لحنهم وهجيراهم شأن ذوي الأعمال المتعبة والخلوة الموحشة لا غنى لهم في التفريج عن النفس وتسليتها عن الغناء به ولا محيص. ولقد ذلل من مطاوعته لهم حتى صار سلسبيلا جارياً، تلك اللغة الذلول ذات الغنى الكبير في مفرداتها ومترادفاتها والتصرف الأكبر في أساليبها وتراكيبها، فنبغوا فيه نبوغاً حدد من أوزانه وأطال من قوافيه وجعله في هذين الأمرين ذا منزلة لم يدانه فيها سواه، وأنى لغيره تلك المداناة دون أن تتهيأ لغته في مفرداتها وأساليبها لما تهيأت له لغة الضاد في التصرف البعيد البديع، الذي مكن لذوي الصناعة اللفظية من الإتيان بأشياء لولاه كانت من المعجزات؛ وفي مقامات الحريري وغيرها من هذا الضرب فنون وألوان: فمن مقامة تتضمن رسالة إحدى كلمات معجمة والأخرى مهملة، إلى مقامة تتضمن أخرى كل كلمة فيها أحد حروفها معجم والآخر مهمل، إلى مقامة تتضمن رسالة تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه، إلى مقامة تتضمن عبارات تقرأ طرداً وردّاً فلا يغيرها عكس حروفها، إلى غير ذلك مما ليس له نظير ولا شبيه في أية لغة أخرى.

وكما كانت العرب في جاهليتها ذات قدرة على قول الشعر، فائقة وشاملة معاً، كذلك كانت

من أقدم الأمم المعروفة به، فأوليـة الشعر عنـدها تكاد ترجع إلى أوليتها وهي أمة قديمة العهد ذات صلة بفجر التاريخ؛ غير أن بداوتها وأميتها حالتا بينها وبين تدوينه بنقش على أثر أو كتب في كتاب، فلم يك لها حياله إلا تلقيه بالحفظ الذي يذوى بذلى الحقب، ويذهب بذهاب الحفظة؛ وهيهات للحفظ وحده أن يبقى ... مأثور على تلك القرون الطوال، لهذا كان الضياع حليف الشعر الجاهلي، فلم يسلم لنا منه وراء قرنين قبل الهجرة شيء، كما لم يسلم منه في هذين القرنين بالنسبة إلى ما ضاع إلا القليـل. وأقدم ماعرف من مأثوره كان في قبائل ربيعة بنجد والعراق، وبخاصة تغلب وبكر أيام حرب البسوس، ومن قدماء شعرائها، ويقال إنه أول من قصد القصيد - والصواب من عرف له القصيد - المهلهل وهو عدي بن ربيعة التغلبي أخو كليب الذي هاجت بمقتله هذه الحرب بين القبيلتين السالفتين، فكان لها في إذكاء الشعر بربيعة الأثر الكبير، ثم تحول إلى قيس عيلان، وكانت شعوبها تملأ نجداً وأعالي الحجاز، ومن قبائلها عبس وذبيان وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء، وتناولت معها الكثيرين، فكان لها من إذكاء الشعر في قيس ما كان في ربيعة لحرب البسوس، ومن قيس انتقل إلى تميم - وتميم مسعر الحروب - فاستقر فيها إلى ما بعد الاسلام، وكانت أول نشوئها في تهامة ثم نزحت إلى شرقي نجد وبادية العراق.

وكذلك ظهر في مدركة فيمن سكن البادية منها: كهذيل وأسد وبعض كنانة وقريش، وبهذا غلب على أهل البادية من مضر وربيعة ومن حل بها معهم من نازحي اليمن القدماء كطيء وكندة وغيرها مما تقدم بيانه في القبائل والبطون، أما الحواضر فكانت قليلة في ذاتها وكذلك كانت كلها قليلة الشعراء.

وإذا قلنا إن الشعر الجاهلي كان أقدم مما أثر منه بكثير، فإنا نستند في قولنا هذا إلى العقل وإلى المأثور، فأما إلى العقل فلأنه يأبى على الشعر الاباء كله أن يظهر طفرة بمثل ما ظهر أيام حرب البسوس، ويأبى لقصائد مهلهل في وصف تلك الحرب ورثاء كليب أخيه، أن تكون غير نتيجة حقب طويلة درج فيهـا الشعر حتى تم صقاله فتعددت أوزانه واستقامت قوافيه؛ وهل كان لها من سبيل إلى الظهور دون أن تكون مسبوقة بأمثالها في العهد القريب وبشبيهات لها في البعيد؛ وهكذا القهقرى إلى عهود سحيقة كان الشعر فيها في صور الصغار من المقطعات؛ وأما إلى المأثور فلأنا نرى في أقدم الشعراء المروى عنهم كامرىء القيس من يقول:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا   نبكي الديار كما بكى ابن حذام

وابن حذام هذا أقدم من امرىء القيس، ولم يصل إلينا من شعره شيء، ولكن لابد أن يكون قد وقف على الاطلال وبكى الديار مثلما يريد أن يقف ويبكي امرؤ القيس، كما لابد أن تكون له قصائد استهلها بالوقوف والبكاء، ثم صرف القول بعدها إلى غير ذلك من الأغراض،

(البقية على الصفحة رقم ٣٢)